المحاضرة رقم04: تاريخ فكر الجغرافيا السياسية

ظهر مصطلح الجغرافيا السياسية بصورة واضحة بعد أن نشر عالم الجغرافيا الألماني فريدريش راتزل كتابه الجغرافيا السياسية سنة 1897، حيث تضمن هذا العمل العديد من الموضوعات المرتبطة بالدراسات الجغرافية القديمة. ومع ذلك، فإن جذور هذا العلم تعود إلى فترات أقدم.

1. الجغرافيا السياسية قبل الميلاد وحتى القرن الثامن عشر

في هذه المرحلة، ظهرت بدايات التفكير في العلاقة بين البيئة والسلوك السياسي، فيما عُرف بـ"الحتم البيئي"، حيث فسر العلماء سلوك الإنسان من خلال ارتباطه بالعوامل الطبيعية مثل المناخ والموقع الجغرافي.

يُعد الفيلسوف اليوناني أرسطو (383–322 ق.م) من أوائل من تناولوا الجغرافيا السياسية، حيث ربط بين قوة الدولة وتوازن عناصرها، وحدد عاملين أساسيين لقيام الدولة:عدد السكان، مساحة الإقليم، كما أكد على أهمية التوازن المكاني وحدود الدولة المناسبة.

وفي السياق نفسه، تناول الفيلسوف أفلاطون (347–428 ق.م) في كتابه القوانين فكرة الحجم والشكل المثالي للدولة، معتبرًا أن الدولة القوية هي التي تمتلك مساحة مناسبة تحقق لها الاكتفاء الذاتي.

لاحقًا، تطورت هذه الأفكار لتشمل ربط الموقع الجغرافي بالقوة العسكرية، خاصة عندما تمتلك الدولة منافذ بحرية تسهّل الاتصال بالعالم الخارجي وتعزز قدراتها.

كما تناول أفلاطون في كتاب الجمهورية تأثير العوامل الجغرافية على سلوك السكان، مؤكدًا أن البيئة تؤثر في النظم السياسية.

خلال العصور الوسطى، تراجعت الدراسات الجغرافية بسبب سيطرة الفكر الديني في أوروبا، بينما ازدهرت في العالم الإسلامي، حيث قدم ابن خلدون إسهامات مهمة، خاصة في دراسة العلاقة بين الإنسان والبيئة، وربطها بقيام الدول وسقوطها.

2. الجغرافيا السياسية في القرن الثامن عشر

بدأت هذه المرحلة مع العالم الجغرافي الألماني فريدريش راتزل (1844–1904)، الذي يُعد المؤسس الفعلي للجغرافيا السياسية الحديثة. تأثر راتزل بأفكار داروين حول التطور، واعتبر أن الدولة كائن حي ينمو ويتطور.

رأى راتزل أن قوة الدولة تعتمد على عدة عوامل أهمها:الموقع الجغرافي، المساحة، الموارد الطبيعية، كما أكد أن الدولة تحتاج إلى التوسع من أجل البقاء، وهو ما يشبه الكائن الحي الذي يسعى للنمو.

وفي كتابه الجغرافيا السياسية (1897)، وضع الأساس العلمي لهذا الفرع، وربطه بالجغرافيا الحيوية، واعتبره فرعًا من الجغرافيا الطبيعية. كما ركّز على تأثير المكان في تشكيل خصائص الشعوب والدول.

3. تطور مفهوم الجغرافيا السياسية من القرن التاسع عشر حتى وقتنا الحاضر

مرّ هذا العلم بثلاث مراحل أساسية؛ بدأت من أواخر القرن 19 (المرحلة الأولى)، ثم فترة العشرينيات حتى منتصف القرن 20 (المرحلة الثانية)، وصولاً إلى وقتنا الحاضر (المرحلة الثالثة).

1. بدأت من أواخر القرن الـــ 19 وحتى العشرينيات من القرن الـــ 20: في هذه المرحلة، برز اسمان شكّلا حجر الزاوية في هذا العلم:

❖ فريدريك راتزل:(Friedrich Ratzel)

✓ اعتبر الجغرافيا السياسية هي "علم الإنسان ببيئته الطبيعية."

- ✓ وضـع "قوانين النمو المسـاحي للدولة"، واعتبر الدولة كائناً حياً يحتاج لمسـاحة جغرافية ليتوسع فيها.
- ✓ رغم الانتقـادات، إلا أن أفكـاره كـانـت الانطلاقـة الأولى لفهم العلاقـة بين الأرض والسياسة.

❖ رودولف كيلين:(Rudolf Kjellen)

- ✓ باحث سويدي تأثر بأفكار راتزل، وهو أول من صاغ مصطلح "الجيوبوليتيك."
- ✓ نظر للدولة ككائن حي له "عقل وأخلاق"، يسعى لتحقيق القوة ليس فقط عبر المساحة، بل عبر توظيف الحضارة للوصول لأهدافه.

2. بدأت منذ العشرينيات وحتى فترة الخمسينات من القرن الـ 20

شـهدت هذه المرحلة ثورة على المفاهيم التقليدية، حيث بدأت دعوات لتأسيس الجغرافيا على أنها علم يدرس "الاختلافات المكانية" وبناء النظريات، وظهرت فيها اتجاهات فكرية مختلفة:

➢ **المدرسة الفرنسية (فيدال دي لا بلاش):**

قدمت مفهوم "الاحتمالية" في علاقة الإنسان بالأرض، وهي وجهة نظر تختلف عن "الحتمية" التي ميزت المدرسة الألمانية؛ حيث يمتلك الإنسان القدرة على الاختيار والتأثير في بيئته.

➢ **باروز:(Barrows – 1923)**

اقترح مفهوماً جديداً يُعرف بـــــ "علم الأيكولوجيا البشـرية"، حيث ركز على دراسـة "تكيف" الإنسان مع البيئة الطبيعية، بدلاً من التركيز التقليدي لراتزل على "تأثير" البيئة فقط.

➢ **كاميل فالو:(Camille Vallaux)**

اعتبر الباحثون في هذه الفترة أن الجغرافيا السياسية هي:

دراسة العلاقة بين أنشطة الإنسان السياسية ومنظماته وبين البيئة الطبيعية، سواء تم عرضها كـ (مؤثرات مباشرة) أو كـ (عملية تكيف عكوسة)".

- **بومان:(Bowman)**

يرى أن الجغرافيا تمتلك محتوىً سـياسـياً جوهرياً؛ لأنها توضـح كيفية تكيف المجموعات البشرية مع بيئات معينة تحت سلطة سياسية محددة، مما يساهم بشكل مباشر في "تعريف الحدود القومية للدولة."

- **جونز:(Jones – 1954)**

وصف الجغرافيا السياسية بأنها "الطفل المتمرد" في عائلة الجغرافيا، واعتبرها أقل الفروع من حيث التطبيق العملي، وظل هذا المفهوم سائداً حتى نهاية الستينات.

- **جاكسون:(Jackson – 1964)**

عرفها بأنها "دراسة الظاهرة السياسية من منظور مساحتها الجغرافية."

- **بيري:(Berry – 1969)**

وجه نقداً لاذعاً لهذا العلم في تلك الفترة، واصفاً إياه بأنه "علم راكد ومحتضر"، معتبراً أن أي محاولة للتغيير فيه ستكون خطوة إيجابية لإنقاذه.

3. من منتصف القرن الـ 20 إلى وقتنا الحاضر

خلال هذه المرحلة، عُرف العلم بـ "الجغرافيا السياسية الحديثة" أو "جغرافيا العالم المعاصر"، وشهدت تطورات منهجية هامة:

أ/ الجغرافيا السياسية حديثاً:

- ✓ ظهور الاتجاه الإقليمي (بعد الخمسينيات):
- ✓ ظهر كمنهج جديد لاقى استجابة واسعة، خاصة وأنه قام على نقد مبادئ الجيوبوليتيك التقليدية.
- ✓ ساهم الباحثان ويتلزي (Whittlesey) وهارتسهورن (Hartshorne) في تجديد الثقة بهذا العلم، ولا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية.

✓ في المقابل، واجه هذا الاتجاه تحفظاً في دول أخرى مثل بريطانيا، حيث فضـــل الباحثون هناك الإبقاء على "المنظور العالمي" الذي يدرس العالم ككتلة واحدة (مثل دراسات ماكندر).

- الجغرافيا السياسية والثورة الكمية:(1960 – 1970)

- حتى عام 1960، ظلت الجغرافيا السياسية بعيدة عن "الثورة الكمية" (الانتقال من الوصف إلى استخدام القوانين واللغة الرقمية).
- أشار الباحث بروتون (Briton) في عام 1963 إلى أن الثورة الكمية أصبحت جزءاً أساسياً من فهم الجغرافيا الشاملة.
- بحلول عام 1968، بدأ الباحثون فعلياً في دراسة كيفية تحويل الجغرافيا السياسية إلى علم "كمي" يعتمد على التحليل والبيانات.

- الاعتراف السياسي بالعلم (منتصف السبعينيات):

- مع تطور العلم، أقرّ علماء السياسة بأهمية الإسهامات الجغرافية، حيث ساعدت في اكتشاف "مناطق خضراء جديدة" (آفاق غير متوقعة) في النظرية السياسية.
- ساهم هذا التطور في إنهاء العزلة التي أحاطت بالعلم لفترة طويلة، وأثبت أن غياب الأساليب الكمية سابقاً كان سبباً رئيساً في ابتعاد الباحثين عن دراستها.

ب/ الجغرافيا السياسية الراهنة

شهدت الجغرافيا السياسية تحولاً جذرياً في العصر الحديث، حيث انتقلت من مجرد دراسة نظرية إلى تحليل واقعي يربط بين المؤسسات السياسية والمساحة الجغرافية.

➢ **تطور المفهوم عند هارتسهورن(Hartshorne)**

يرى هارتسهورن أن العلم لم يعد يكتفي بالوصف، بل أصبح يركز على:

- التحليل المساحي: أي ظاهرة سياسية أو مؤسسة (مثل الدولة) تعد موضوعاً للجغرافيا السياسية طالما أنها تشغل "أرضاً."

- حياة الفرد والدولة: أصبحت الجغرافيا السياسية مرتبطة بتفاصيل حياة الأفراد، حيث تشتق الدولة أنشطتها وسلطتها من احتياجاتهم ووظائفها التي توفر الأمن والرفاهية.
- الهدف الأساسي للدولة: هو جمع شتات المناطق التي تقع في نطاقها لتشكل "وحدة واحدة"، وذلك عبر سلطة مركزية محكمة اقتصادياً وسياسياً.

اعتمد المتخصصون منهجاً حديثاً يقوم على ست نقاط أساسية لفهم وتفسير أي دولة جغرافياً وسياسياً:

1) الترابط بين الدولة والأمة: دراسة الحدود السياسية الراهنة والمجموعات البشرية داخلها وخارجها.
2) الموقع والمساحة والشكل: وتأثيرها على استراتيجيات الدفاع، الموارد الطبيعية: استغلالها ومدى التقدم التكنولوجي والصناعي (مقومات بشرية)، النقل والاتصالات: دورها في ربط أجزاء الدولة.
3) التماسك الاجتماعي: مدى ولاء السكان وعلاقتهم بالدولة.
4) النمط الجغرافي للحلفاء: دراسة الأقاليم والموارد الحيوية التي تعتمد عليها الدولة خارج حدودها لتحقيق الرخاء.
5) التجارة الدولية: اعتبار التجارة أداة من أدوات السياسة، حيث لا توجد دولة تكفي نفسها ذاتياً بشكل كامل.
6) الأسلوب الذي ينظر بها مواطني الدولة إلى دولتهم وأصدقائهم؛ ذلك الأمر يتطلب الاهتمام بدراسة الجغرافيا السياسية للدولة لما له من أثر في حدوث الصدام داخلياً وخارجياً أو منعه.

المراجع المعتمدة:

- محمود الدرساوي، تطور مفهوم الجغرافيا السياسية: من المفاهيم التقليدية إلى التوجهات المعاصرة، المجلة العربية للنشر العلمي، ع: 78، نيسان2025، ص ص 218-229.